خابزة رغيف الجياع

فتحتْ عَينينِ ناعستين وتفحصتْ ما حولها، الفجر يطرق أبواب السماء ويزحف بلونه الفضي الشاحب في عتمة الليل المنجلي. استوت جالسة في فراشها والنعاس يُثقل جفنيها. لملمت شعرها وخبأته تحت شالها الأزرق الصوفي المهترأ الذي حاكته لها أمها وأهدته لها يوم زفافها، مسحت وجهها بباطن كفيها فتبدّد النعاس وأصبحت يقظة، تثاءبت، بسملت وحولقت ومن ثم تمتمت أذكارها وتعاويذها كما تفعل كل صباح. كان نايف بجانبها يغط بنومه العميق، ويعلو شخيره كصوت المطحنة.

كل شيء ساكنا سكون الفجر هذا، ولم تسمع سوى صياح ديك ونباح كلب أتيا من البعيد، البرد شديد والفراش الدافئ يناديها أنْ عودي إلى النوم لكنها نهضت، (ما زلتِ صبية، الله يعافيكِ) قالت لها جارتها يوم أمس، فابتسمت بحياء وردّت عليها بتنهيدة تقول فيها (أي صِبا هذا..؟، ليته يعود يوما، الحمد لله على كل حال). فتحت الباب الخشبي فاختلط صريره بغناء صرصار ليل قريب، أطلّت برأسها وتنفست من الفجر نسمات باردة ملأت روحها نشاطاً وبثّت التفاؤل في نفسها. مشت حافية القدمين فوق الحجارة الملساء المرصوفة بعناية أمام البيت وكانت باردة كالثلج، اقتربت من حوض حجري بجانب صنبور الماء وغسلتْ وجهها، فسرَتْ قشعريرة باردة في جسدها. (يا رب يا كريم، يا رحمن يا رحيم) قالت وهي تجفف الماء عن وجهها وتجول بنظرها على أشجار حديقتها العزيزة. انتعلت حذاءها ومشت نحو بيت المؤونة وهي تحكم ثوبها الصوفي فوق كتفيها اتقاء للبرد. غرفة

المؤونـة حجـرة صـغيرة سـقفها مـنخفض ومـن ألـواح خشـبية وتعلوها طبقة سميكة من التـراب، والجـدارن حجريـة بازلتيـة مكسوة بالطين مـن الـداخل، وهنـاك فـي جهتهـا الشـرقية بـاب خشبي متهالك. فتحت الباب ودلفت فسرى الدفيء فـي جسـدها وشعرت بارتياح لذيذ ورغبة خاطفة في العودة إلى النوم، فـأر لاذ بـالفرار مـن خطـا قـدميها، وعصـافير الصـباح تغـرّد فـي الحديقة بكسل وهدوء. أزاحت الغطاء عن وعاء نحاسـي كبيـر كان على الأرض أمامها، مدّت يدها وتحسّست وجـه العجـين، التقطت كتلة بحجـم حّبـة الجـوز وقلّبتهـا بـين أصـابعها، (لقـد اختمر، على بركة الله) تمتمت وهي تضـيء الفـانوس القـديم، فانـداح ضـوءه الأصـفر الشـاحب يتـراقص فـي سـواد العتمـة ولملمـت شـعرها مـن جديـد وأحكمـت شـالها الأزرق عليـه. وزّعت أدواتها حولها، وهيأت جلستها، طبليّة الخشـب وبعـض الطحين وأواني كبيرة مسطّحة عليهـا قطـع مـن قمـاش أبـيض اللـون. بسـملت ودعـت بالبركـة، (ادعـي لتحـل البركـة علـى العجين ولتباركي خبزك) كما كانت تقول لها أمها العزيزة.

بدأت تصنع كرات من عجين بحجم البرتقالة بخفة وخبرة متقنة، رائحة الخميرة تعبق بأنفها وتستحضر من دفين ذاكرتـها صورة والدتها، (كم أشتاقك يا أمي) قالت لنفسها وقـد عـادت بـذاكرتها إلـى ماضـي قـديم وجميـل مفعـم بالبسـاطة والمحبـة. وعلى وقع تزاحم الصور العتيقة في مخيلتهـا ازدادت الكـرات حولها ونفذ العجين، فنهضت وخرجت من غرفة المؤونة. كان الفجر قد اكتمل وأسبل على المكان ضـوءً كسـولاً وكثيـراً مـن السـكينة العذبـة، الطيـور تغـرّد فـي جوقـة صـباحية بعشـوائية صاخبة، فيصل لحنهـا إلـى شـغاف القلـب المتـرنّح مـن سـكرة الفجر الربيعي الخلاّب فينتشي طرباً.

شجيرات الحديقة تميد مع النسمات الربيعية الباردة، وحفيف أوراقها يعطي صوتا عذباً أقرب هو إلى الهمس، هرّة البيت تموء وتتمسّح بقدميها، وصياح الديكة يتعالى من كل مكان في الأرجاء القريبة. تناهى إلى سمعها أصوات الجيران، القرية نهضت إذاً من نومها، وبدأت بيوم جديد.

عادت إلى غرفة المؤونة وأوقدت الموقد هناك، بضع حطبات وكومة قش صغيرة تبعها عودٌ مشتعل من الثقاب، نفخت عليها عدة مرّات فاشتعلت وتصاعد الدخان الأبيض متراقصاً متهادياً حتى السقف الخشبي. رمَتْ في الموقد الحطب والقشّ ثانية وخرجت مسرعة قبل أن تلفها غيمة من الدخان الكثيف تُدْمِعُ عَينها وتُسْعِلُ صدرها. كان نايف يقف في الخارج بوجه يقطع الرزق كما يقول عنه جاره أبو معذى. (اضحك يا رجل كي لا تقطع رزق العباد بوجهك العابس هذا) وكم ضحكت على هذه الدعابة المحققة. بادرته بالقول باسمة :

- صباح الخير.

فنظر نحوها بعينين حَمراوين ذابلتين وقال:

- أي خير ..؟، قولي صباح الزفت، كل ما تحدثناه بالأمس لم تستوعبيه ولم يدخل في رأسك منه أي حرف..؟.

لم تجب، وتابعت نقل أواني كرات العجين إلى قرب الموقد الذي كانتْ الجمرات في باطنه تتقد بلونها القرمزي الوهّاج. لحق بها نايف وهو يصيح :

- الظروف صعبة، والبلد في أزمة خانقة، ومستقبلها كالجحيم، ألا تدركين هذا..؟.

جلست بجانب الموقد وقد هيأت ذاتها للخَبْزِ، تفحّصت أشياءها مرتين، ورمت بعض القش مع جذع شجرة صغير يابس في الموقد ونايف يقول بتشنج خلفها :

- والناس تمر بحاجة خانقة، ولا يوجد عاقل في هذه الظروف يفرّط برزقه وطعامه.

لمست برؤوس أصابعها التنور المعدني الضخم فوق الموقد، (مسّيه مسّاً خفيفا بأصابعك لتعرفي حرارته إن كانت مناسبة لبدء الخَبْز أم لا) يأتيها صوت أمها من ثنايا ماضيها القديم. عادت وأطعمت النار بعض الحطب والقش، ومسحت التنور المعدني الساخن بقطعة قماش مبلولة بالزيت فَعَلَتْ الأبخرة وتضوّعت في المكان رائحة الزيتون المحروق ونايف يقول:

- ما نملكه من طحين لا يكفي حتى الموسم القادم، ولم تمطر جيداً منذ العامين، والنازحون ملأوا الأرض حول القرية بخيامهم وأعاقوا حراثتها وزراعتها، ألا تفهمين ما أقول..؟.

أيضاً لم تجب، لملمت شعرها عندما نايف سدّ باب الحجرة بجثته الضخمة وحجب عنها ضوء الصباح ونسماته الباردة المنعشة. تناولت كرة العجين الأولى بيدها وبالأخرى نثرت بعض الطحين على الطبليّة، ونايف محتد صوته يعلو وهو يقول:

- من فترة أكلوا موسم التفاح عند أبو عمّار، ولم تكفهم كل الخراف التي ذبحها لهم المختار من قطيعه حتى الآن، ويطلبون المزيد.

أنصتت، ومن ثم ابتسمت، وتابعت ضرب كرة العجين على الطبليّة بشكل دائري وبإيقاع رتيب أوحى لسامعه بهدوء أعماقها وسكينتها، فاتسعت قطعة العجين تحت يديها وأصبحت رقيقة واتخذت شكل رغيف الخبز، نثرت بعض الطحين عليها وتابعت العزف بيديها فوق العجين وعلى الطبليّة بإيقاع خَبِرَتْهُ لأكثر من نصف قرن مضى، ثم رفعت رغيف العجين بين راحتيها وراقَصته في الهواء ملوّحة به بحركات متناغمة ما بين كفيها وعينيها، فما كان رغيفا صغيراً إذ هو بحجم التنور اتساعاً، ورقيقاً كورق الشجر ويكاد أن يكون شفافاً، ونايف يحاول إقناعها وقد لاحت في صوته نبرة الرجاء:

- ونحن فقراء أيضاً ومساكين، ومحتاجين، فكيف لنا أن نُقاسِم خبز يومنا مع غريب نزح من بعيد وسكن أرضنا..؟.

بحركة متقنة وضعت رغيف العجين فوق التنور الملتهب، فغطاه تماماً، وظهرت فقاقيع الهواء في الرغيف واتشح بلون ذهبي وفاحت منه رائحة الخبز الطازج. بدت راضية وقد تورّد وجهها من حرارة الموقد واكتسب لوناً وردياً غطّى تجاعيد السنين النافرة فيه. شربت الماء من إبريق الفخّار بجانبها حتى ارتوت، حمدت وشكرت وتابعت عزفها على العجين فوق الطبليّة كرة إثر أخرى. نايف بدا عليه الخمول اليأس وقد أنهكه الصراخ لإقناعها، فجلس القرفصاء أمامها يأكل لقيمات من رغيف خبز ساخن تناوله من على التنور، ويحدق في النار المتهادية أسفله. (حماقة الرجل قاوميها بالصمت يا ابنتي، لا علاج لها إلا هذا) ترحمّت على أمها وشعرت بغصة في فؤادها لعمق هذه الذكرى. مدّت قضيب الحديد في عمق النار وحركته، فانتفض الجمر الراكد و تطايرت شراراته الحمراء وكأنها مذنبات غزت أعالي السماء، فأبعدت وجهها لكي لا تدركه أي واحدة منها.

مضى الوقت وأرغفة الخبز الساخن تتراكم فوق بعضها البعض وكرات العجين تتناقص، بان على صفحة وجهها التعب وقد أصبح لونه أحمر ولمعت فيه حبات العرق المنهمر من جبينها. الشمس أطلّت بخجل من عند الأفق وغمرت الحديقة وبيت المؤونة بنورها الصباحي الذهبي الخلاّب، نايف كان عند الباب متكئاً وقد مدّد جسده تحت نور الشمس، بدا عليه الهدوء والشرود وهو يمجّ من لفافة التبغ البلدي التي انهمك بلفها قبل قليل، وبين الفينة والأخرى كان يتمتم كمن يحاكي ذاته :

- موت ودمار وتشرد وضَياع، حرب غبية دائرة هنا فإلى أين يا بلد تذهبين..؟، آه يا وطن.

أنصتت له وابتسمت، وأتاها صوت أمها من الماضي السحيق ندياً وعذباً وهي تقول لها (طيب القلب يا ابنتي زوجك هذا، ليس بأفهم من طفل صغير بكثير، فلا تحملي عليه إن غضب منك)، انقبض قلبها بحرقة الفراق والألم، وكادت أن تفلت دمعة متمردة من عينها إذ لاح في خاطرها الوطن جريحاً، وتراءى لها من تشرد ومن نزح ومن بقي والكل يلعق الجراح المثخنة، لكنها حبست الدمع وقالت بحزم وبصوت متّقد:

- نايف، هيا حضّر نفسك فقد كدتُ أن أنتهي.

وقبل أن تعلو الشمس في كبد السماء ويشتد وهجها كان نايف وحماره من خلفه يسيران نحو مخيم النازحين القريب من القرية وأكياس الخبز مكدّسة فوق ظهر الحمار الذي كان يمشي بسكينته البلهاء ويمضغ بفمه الكبير بعضاً من العشب الأخضر الندي. وعندما اجتازا الممر الضيق بين القرية والتلّة الشرقية ظهر السهل الواسع بلونه البني المتداخل فيه بساط

الربيع الأخضر الجميل، وقد تهادى فوق السهل شريط من ندى الصباح الفضي، واكتست الحجارة والنباتات بقطرات ماء صافية كزلال العين، وكان في الجو برودة منعشة. انشغل نايف بلفافة تبغه حتى تناهتْ إلى أذنيه ضجة المخيم وأصوات الأطفال فيه، وشاهد من بعيد بعضِ الرجال وقد أتوا لمساعدته مرحبين مهللين له، ابتسم وطَفَتْ البشاشة على وجهه، وغمرت روحه فرحة تراقص على وقعها قلبه في جوفه، فنهر حماره ليحث الخطا أكثر وأكثر.